جامعة عبد الرحمن ميرة ـ بجاية

كلية الآداب واللغات

قسم اللغة والأدب العربي

المحاضرة الثانية: الرواية المغاربية الواقعية في بداياتها الأولى

1-القواسم المشتركة للإنتاج الروائي المغاربي في : الجزائر/تونس/ المغرب/ ليبيا/ موريتانيا

إنّ الوضع التاريخي المشترك لبلدان المغرب العربي المقترن بمراحل مقاومة المستعمر، والنكبات، ونهوض الشعوب المغاربية لبناء مجتمعات الاستقلال الناهضة، على الصعيد الاقتصادي والاجتماعي، أعاد بناء وعي تاريخي عند فئة من الأدباء الملتزمين بمشاكل بلدانهم وطموحات شعوبهم، وهذا ما أوجد مفهوم الاتزام والشكل الواقعي، ليصبح الأسلوب الواقعي الاشتراكي هو نتاج للوحدة الجدلية بين العام والخاص، وبين الذاتي والموضوعي في النص الأدبي.

فبرزت محاولات جادة في بلدان المغرب العربي لتطوير الفنون الشعبية بصفة عامة والرواية بصفة خاصة لأنّها تجسّد فضاء جماليا لرصد آلام هذه الشعوب، في محاولاتهم الدائبة لإبداع أشكالا سردية حيوية أخرى كالسيرة الذاتية ملائمة كلّها للتعبير عن الذات المبدعة وتطلعاتها المشروعة، والدفاع عن مجتمعاتها.

وفجرّت طاقات إبداعية في كلّ أقطار المغرب العربي، كشفت آفاقا جديدة من حيث المضامين التي فرضها الواقع المشترك، واقع الاستعمار، واقع الثورة، وواقع استقلال هذه الشعوب، وبناء دولهم. وهذا ما أوجد أشكالا فنية، كضرورة أفرزتها الظروف الاجتماعية والسياسية. فالواقعية الاشتراكية في معظم الكتابات تمتاز بالأمانة التاريخية، الحزبية، والقومية، والالتحام العميق بالحياة والواقع وإبداع شخصيات نموذجية في مواقف نموذجية والبرهان على الطابع العام لعمليات التحوّل الاجتماعي من خلال صور فردية للأشخاص والأحداث وتحليل العلاقات الاجتماعية بطريقة لا تعكس فحسب اتجاهات الماضي والحاضر، وإنّما تشير أيضا إلى طبيعة تطورّها في المستقبل إذ أنّ الفنان الواقعي انطلاقا من رؤيته للحياة يستطيع أن يكتشف القوى المحركة للمجتمع وأن يبني منظوره للمستقبل على أساس واقعي علمي، لا على أساس مثالي خيالي.

والإنتاج الروائي المغاربي فضلا عن مواكبته الإبداعية لتاريخ وتحولات هذه الأقطار المغاربية، فهو يجسّد ويصدر عن قواسم مشتركة تعتبر استلهام الروائيين لنفس السياق السياسي والسوسيو ثقافي، وثمرة استلهامهم لنفس المتخيّل ولنفس الذاكرة اللغوية المشتركة الغنيّة والمتجذّرة في المقدّس والدنيوي، والمدوّن والشفوي منذ قرون. ومن هذه القواسم التي حدّدها الناقد عبد الحميد عقار:

- ارتباط نشأة هذا الأدب في مراحله الأولى قبل الاستقلال ببروز الحركات الوطنية وحركات الإصلاح والتجديد، مما أضفى على الأدب طابعا اجتماعيا وتسجيليا استهدف تخليص اللغة الأدبية من قيود التقليد، وتحرير المضمون من الرتابة، والاهتمام بالتسجيل التخييلي لردود الأفعال تجاه خصائص الحقبة الاستعمارية، وبخاصة أسئلة الهوية ومقومات الشخصية المغاربية
- غنى الموروث الثقافي العالم واستمرار تاثراته وامتداداته في الذاكرة والوجدان والتربية

- قوة حضور التراث الشعبي.
- عمق التفاعل والتواصل مع الحركة الثقافية والأدبية في المشرق العربي.
- تأثيرات المثاقفة والحاجة إلى الانفتاح الإيجابي على الآخر ثقافة ولغة، لكن بأفق نقدي وانتقادي.

2-نماذج لروايات واقعية

والرواية الجزائرية نبتت على أرضية مجتمع حاول أن يبني نفسه، مشرعا كما أكّد الروائي " واسيني الأعرج" أبوابه على المستقبل الاشتراكي العادل، فبسبب الأجواء غير الطبيعية التي عاشتها الجزائر، خلقت بشكل عام، زخما ثوريا، أثّر بشكل مباشر على الأدب الجزائري. وجعل التاريخ نتيجة لذلك " تجربة جماهيرية " متأثرة، ومؤثرة، وتطورّت الرواية المكتوبة باللغة الفرنسية (الجزائرية طبعا) أكثر، والتي كانت قد وصلت أوجها في النصف الثاني من القرن العشرين، لترقى الرواية مع محمد ديب، وكاتب ياسين إلى مكانة الرواية العالمية، الواقعية الاشتراكية، كلّ هذه الروايات وأخرى كانت عملا جزائريا يشارك في حركة المقاومة بأوفر نصيب، ويفصح عن نبوءة " البيت الكبير " بأنّ الحريق التهمت نيرانه كلّ شيء، ولم يعد سوى القليل، حتى يخلّف الرماد أرضا صلبة، يبني فوقها المناضلون، الجزائر الجديدة.

والرواية الثانية باللغة العربية التي احتوت على عناصر واقعية انتقادية جد مهمة، أرجعها الروائي واسيني الأعرج إلى ثقافة نور الدين بوجدرة التي أعطت روايته " الحريق " كلّ تلك الأبعاد الواقعية في وقت كانت فيه اللغة العربية محاربة بشكل واضح. فقد توصّل نور الدين بوجدرة إلى أن يطرح الموضوعات نفسها التي طرحتها الرواية الجزائرية المكتوبة باللغة الفرنسية، مستفيدا في ذلك بكلّ ما يمكن أن تمنحه له الإنجازات الواقعية للرواية الغربية. فقد تلاحمن ط الحريق " بالثورة، ولو بشكل عاطفي، عكس ما فعلته روايات مثل، حريق محمد ديب، والدار الكبيرة، والنول، للكاتب نفسه ونجمة لياسين،

والقضية لهنري علاق. فقد شنوا حملة منظمة، وواعية ضد الرأسمالية في مختلف تشكلاتها، وبكلّ مؤسساتها القمعية، وضد الأسس الظالمة للعلاقات الإنسانية.

لقد كان اعتراف معظم الكتاب الجزائريين بضرورة تحطيم العلاقات الاجتماعية القائمة على الملكية مطابقا للاستنتاج الذي توصّل إليه الفكر الاجتماعي، هذا الاستعمار الذي فتت الوحدة القبلية، ليضمن لنفسه بقاء أطول.

واستأثر إذن موضوع الثورة وتحولاتها ضد المستعمر وانعكاساتها على سلوكات الأفراد وسيرورة التغيير باهتمام روائيين جزائريين بعد الاستقلال في روايات وطار كرواية " اللاز" (1974) صور فيها وفي غيرها من الروايات الصراعات الجوهرية السائدة في المجتمع الجزائري وخاصة في المرحلة الوطنية الديموقراطية، بكلّ ما تحمل هذه الصراعات من إيجابيات وسلبيات، والتي تتزاحم في رحم الانجازات الديموقراطية والثورة الزراعية على رأسها، وكذلك التطوّع من أجل إنجاحها.واستطاع الروائي أن يلمس جوهر الصراع الحقيقي في المجتمع ويكشفه، بحشد كلّ الوقائع التاريخية وقولبتها ضمن إطار روائي منظم، وضمن أنساق جمالية متقدمة جدا، مدركا بذلك خصوصية الرواية الحقيقية وأنّها أكثر فنون الأدب تصويرا لحركة الانسان في علاقته بمجتمعه.

- رواية " الجازية والدراويش" لعبد الحميد بن هدوقة(1983)
- رواية " حمائم الشفق " لجيلالي خلاص 1986
- رواية " ما تبقى من سيرة لخضر حمروش " لواسيني الأعرج (1982)

أمّا الرواية **التونسية** " من الضحايا " (1956) لمحمد عروسي المطوي، فتعدّ أوّل رواية ذات نزعة تاريخية تسجيلية وذات طابع تعليمي وتعالج قضايا الصراع من اجل استرجاع الأرض المغتصبة من الإقطاعيين. وتصطنع الشكل التقليدي للرواية الاوربية من حيث الوصف وتقديم الشخصيات وسرد الأحداث سردا منظما في الزمن.

وتكرسّت الواقعية النقدية باعتبارها اختيارا أدبيا في الرواية التونسية خلال الستينات والسبعينات. وتمثّل العلاقة بين المدن والقرى وما ينجم عن الهجرة والنزوح من مشاكل ومشاعر، ثمّ تصوير أشكال الصراع الوطني والاجتماعي التيمة الكبرى المهيمنة.

وأوّل رواية سلكت طريق الواقعية لرصد وتصوير المشكلات الاجتماعية المتصلة بالأرض وطغيان الاقطاعيين " من الضحايا " لمحمد العروسي المطوي. أمّا في رواية " برق الليل " لبشير خريف زواج بين الموضوعات الاجتماعية والتاريخية. وروايات واقعية من إنتاج الروائي " مصطفى الفارسي ".

وفي **المغرب** كانت الرواية المغربية في بدايتها عبارة عن تقليد لمجموعة من النماذج السابقة، خاصة على مستوى قوانين وثوابت تكوّن جنس الكتابة الروائية، وتجسّت في هذه المرحلة الرغبة في تمثّل الكتابة الروائية عبر محاكاة وتقليد نماذج سابقة، مثلتها الرواية الغربية من جهة والرواية المشرقية التي كان لها السبق في النشأة من جهة أخرى. وتعتبر تجربة " الزاوية " (1942) للتهامي الوزاني نموذجا لهذه البداية. إنّ مجمل إنتاج هذه المرحلة يتحدّد في أربعة أعمال، وهي فترة امتدت إلى ما بعد الاستقلال.

وتأتي المرحلة الثانية كمرحلة تمثلت فيها الرواية المغربية، إذ على مستوى الموضوعات وإن على مستوى الشكل، أصول الكتابة الروائية، وكانت خاصيتها الأساسية هي النزعة الواقعية الاجتماعية، فظلّت متعالقة بالخطابات والصراعات الأيديولوجية، وبالتصورات السائدة عن الكتابة على مدى عقدي الستينات والسبعينات وبداية الثمانينات من القرن العشرين، والمرتبطة في أغلبها بفلسفة الالتزام التي تنطلق منها المدرسة الواقعية في الأدب. والرواية في هذه المرحلة تغطي العقود الثلاثة الأولى لعهد الاستقلال. وتمثّل هذه النصوص معالمها الكبرى:

والرواية المغربية في النشأة تناولت موضوعين أساسيين هما: السيرة الذاتية، والرجوع إلى التاريخ، وبعد هذا التاريخ وابتداء من مرحلة الستينات عرفت الرواية المغربية تطوّرا في الكم والكيف.

استجابت الرواية لواقع المغرب بعد الاستقلال، مما استدعى أشكالا سردية متنوعة، وهي: شكل السيرة الذاتية، الرواية المجتمعية، شكل الرواية السياسية، شكل الرواية التاريخية،

والروايات المغاربية في مرحلة التأسيس كانت تتميّز بخاصية تتمثّل على مستوى المضمون في حضور الاستعمار والغرب، ففي رواية " دفنا الماضي " يركز الروائي على الصراع بين الجيلين في العائلة الكبيرة للتعبير عن الصراع بين المغرب والغرب، وتنتهي الرواية بتحقيق الاستقلال. أمّا في رواية أخرى " في الطفولة "، فيتحدث الروائي عن طفولته، حيث عاش في البيئتين المتناقضتين: انجلترا والمغرب. فكانت الكتابة الروائية تتعلق مادتها الحكائية بالتاريخ والواقع تعلقا عميقا.

ومثّل التاريخ مادة أخرى للحكي لدى بعض الروائيين المغاربة، وبالضبط عند سالم حميش في روايتيه " كمجنون الحكم " و " العلامة "، وعند أحمد التوفيق في رواياته " جارات أبي موسى " و " شجيرة حناء وقمر " و " السيل ". فالروائيان تفاعلا مع فترات معيّنة من التاريخ العربي الإسلامي، التاريخ المصري عند حميش والتاريخ المغربي عند التوفيق، فتجربة سالم حميش تعود إلى شخصيتين تاريخيتين معروفتين هما " أبو علي منصور " الملقب بالحاكم بأمر الله في " مجنون الحكم "، والذي استوحت معه فترة زمنية من التاريخ السياسي لمصر الفاطمية، هي الفترة التي قضاها الحاكم في الحكم. ثمّ " عبد الرحمن بن خلدون " في العلاّمة " التي استوحت عبر جزء من حياته فترة زمنية من

التاريخ السياسي لمصر المملوكية، تتبعت فيها وضع المثقف وعلاقته بالسلطة، وتمتد هذه الفترة خلال نهاية حكم السلطان " برقوق " وبداية حكم خلفه السلطان " فرج ".

وقد استحضر الروائي هاتين الفترتين التاريخيتين من خلال الكتابات التاريخية التي تناولتها، والتي تفاعلت معها الروايتان بالمحاكاة أحيانا والتحويل أحيانا أخرى، سعيا وراء صياغة ملائمة للتيمات التي يودّ الروائي إبرازها. ففي الروايتين يلاحظ بوضوح كثافة حضور النص السابق الذي اتخذ أشكالا مختلفة هي مختلف أنماط التفاعل النصي الذي أثبتته الرواية إزاءه، كالتوازي النصي والتناص بشكليه، التضمين والسرقة الأدبية. ويمكن العودة في هذا الصدد إلى لائحة المراجع والمصادر المعتمدة كمنطلق للتخييل في الصفحات الأخيرة من رواية " مجنون الحكم ".

أمّا في **ليبيا** شهدت الرواية انطلاقها مع بداية الستينات، ويتمثّل ذلك في رواية " اعترافات إنسان " (1961) لمحمد فريد سيالة. و" قصة أقوى من الحرب " (1962). و " حصار الكوف " 1964 لمحمد علي عمر. و " غروب بلا شروق " (1968) لسعد عمر الغفير سالم. وإلى منتصف الثمانينات ، صدرت عدة نصوص نشرها مؤلفوها باعتبارها روايات، غير أنّها تتصّف في الغالب ، عدا نزعة التقليد الطاغية عليها، بالفقر الواضح في مستويات أبنيتها وتخيلاتها. وتعتبر رواية " حقول الرماد " (1985) لإبراهيم الفقيه البداية الناضجة والمكتملة للرواية.

ومن أبرز نصوص **الرواية الموريتانية الأولى** " الأسماء المتغيّرة " (1981) التي أرخت لانتفاضة موريتانيا ضد الاستعمار، ولصراعاتها الفكرية والإيديولوجية بعد الاستقلال، وتطرح قضايا الهوية وإعادة صياغة الشخصية الوطنية، و" القبر المجهول أو الأصول " (1984) لأحمد ولد عبد القادر، و " مدينة الرياح " (1996) لموسى ولد أبنو.

التطبيق الثاني:

رصدت الرواية التاريخية في بلدان المغرب العربي تحولات الواقع وهزاته، فكانت الأحداث التاريخية والشخصيات خلفيات رسمت واقعا فنيّا.

المطلوب:

1- يختار الطالب في كل فوج رواية من الروايات التي سنقترحها : رواية "مجنون الحكم " ورواية " العلامة " لسالم حميش. و رواية " الأسماء المتغيّرة " ورواية " القبر المجهول " لأحمد ولد عبد القادر.

2- يقرأ الطالب الرواية المختارة، ثمّ ينجز بمفرده ملخصا غير منقول من الانترنت، متتبّعا الخطوات التالية:

يقرأ الطالب المادة المقدمة في المحاضرة في تفاصيلها، ويفهمها.

بعد قراءة الرواية المختارة يحاول فهم أقسامها وتركيبها.

بعد القراءة يستخرج الموضوعات الأساسية المطروحة في المحاضرة وتشكّل محور الرواية.

توضع أهم القضايا في جدول إذا أمكن.

يختار الطالب من نص الرواية شواهد تلائم موضوع المحاضرة، مثل توظيف التاريخ، موضوع الثورة، الاستعمار، النكبات، الهوية، وموضوعات اجتماعية.

3- يركّز كلّ طالب على المادة الحكائية : من شخصيات وزمن ومكان وراوي/ ثمّ يستخلص أهم الموضوعات التي ترتبط بتوظيف التاريخ في النص الروائي.

4- سيعتمد كلّ طالب على النص النظري التالي الذي يعرف فيه الناقد الرواية التاريخية.

النص النظري: في مفهوم الرواية التاريخية

كما شرح الأستاذ إبراهيم خليل في كتابه عن الرواية التاريخية :« فالقارئ حين يقرأ رواية تاريخية لا بدّ من أن يقع فيها على حوادث، وعلى أشخاص، وقد تتخللها حبكة عاطفية غرامية، أو معالجة لمسائل اجتماعية: كالفقر، أو الجوع، أو الظلم الاجتماعي. وقد نجد فيها أيضا مواقف سياسية، وأخرى دينية، ومع ذلك نسميها رواية تاريخية، ولا نصنفها ضمن الروايات الغرامية، أو السياسية أو الدينية. وبصرف النظر عن ذلك كلّه تختلف الرواية التاريخية عن التاريخ باعتمادها الانتخاب، والترتيب، والإضافة والحذف، وتحليل الشخوص، والتخييل، بهدف بث الحياة في الهياكل التاريخية لتبدو للقارئ وكأنّه حاضر يعيشه الراوي، ولكن لا يجوز أن يقحم الكاتب في التاريخ عناصر تجعله يبدو مختلفا عما هو معروف . إذ ينبغي أن تستند الرواية التاريخية لحوادث لها قيمتها التاريخية، وقد تمّ تدوينها في السابق. أمّا إذا تضمنت الرواية حوادث لها قيمة تاريخية، بيد أنّها لم تدوّن في السابق، فهي بهذا المعنى لا تعدّ رواية تاريخية».

توصيات الأستاذة:

- القراءة ستكون متأنية و متكرّرة للمحاضرات المقدّمة وللرواية، لتحقيق الإفادة العلمية. يجب أن يكون العمل المنجز فرديا.
- ولتسهيل القراءة يجب تحقيق الربط بين موضوع المحاضرة والقضايا الأساسية المعبر عنها في النص الروائي المختار.

الأستاذة كميلة واتيكي بجاية يوم الأحد 12 أفريل 2020 م